سعد بن أبي وقاص
رضي الله عنه

« ارم سعد .. فداك أبي وأمي . اللهم سدد رميته وأجب دعوته »

محمد ﷺ

كانَ سعدُ بن أبي وقَّاص شاباً شُجاعاً قَوياً، وكانَ يَرْمي السِّهامَ ويَصنْعُ الدُّروعَ، والأقواسَ ويُرتِّب في متجرَهُ بعناية أدوات الحرب، وكانتْ تُسيطرُ عليه حَيرةٌ ودَهشةٌ. في هذه السَّاعة مرَّ عليه أبوبكر الصدِّيق فحيَّاهُ وسألهُ: مالي أراكَ حائراً قلقاً؟

ردَّ سَعْد قَائلاً: رُؤيا رَأيتُها بالأمْس.

ـ خيراً .. ماذا رأيتَ في نَوْمكَ؟

ـ رأيتُ أنَّني أسيرُ مُتعثِّراً في طريقٍ وَعْرٍ مُعْتمٍ، ثُمَّ ظهرَ القَمرُ فجأةً وصَحوتُ من نومي.

تبسَّم أبو بكر وقال: أبْشر يا صديقي، إنهارؤيا خيرٌ.

ـ وَمَا تَأويلُها؟.

ـ إن تَأويلَها يا صَاحبي أنكَ تَسيرُ في مَتاهات الجَاهلية وهي مُظلْمةٌ ومُلتويةٌ، فبينما أنتَ كذلكَ إذ طَلْعَ القَمرُ وأنارَ الكونَ بنورِ النُّبوةِ .. يا صديقي لعلَّكَ سَمعتَ عَن مُحمدٍ بن عبدِ اللّه ..

ـ تَعنى الصَّادقَ الأمين؟

ـ نَعَم . . إنَهُ نَبىٌّ مُرسَلٌ من اللّه إلى النَّاسُ ليُؤمنوا باللّه وَحدهُ لا شَريكَ لهُ وإلى تَرْك عبادةَ الأصْنام، ولقد آمنتُ به . إنهُ دينٌ جَديدٌ يدعو إلى العَدل والرَّحمة ومكَارم الأخلاق .

واستبشَرَ سعدٌ بهذه الرُّؤيا وَمَضى مَع أبى بكر الصدِّيق إلى رَسولُ اللّه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ليَستَمعَ إلى كَلام النَّبى، ويُشهدَ أن لاإله إلا اللّه وأنَ مُحمداً رَسولُ اللّه . وكانَ عُمرهُ آنئذ سَبعةُ عَشْر عاماً .

ووَصَلَ خبرُ إسلام سَعْد إلى أُمّه فَثَارتْ وَغَضبتْ وَأقسمتْ ألا تَذُوقُ الطَّعامَ أو الشَّرابَ حَتى يَرجعَ ابْنَهَا عنْ دينه إلى دين آبائه وأجْداده . وكانَ سعدٌ بَرّاً بوالديه رَحيماً بأمه، فَأخَذَ يُلاطفُها ويُحدِّثُها عَن دين مُحَمَد، وهى لا تَسمعُ لهُ وتُشيحُ بوَجهها عنهُ .

وَتَظَلُّ الأمُّ على مَوْقفُها، وسَعدٌ حَزينٌ . يُريدُ إرضاءَها ولكنهُ لا يُفْلحُ، فتقولُ له : سأظلُّ هكَذا حتى أموتُ حُزْناً، ويُعيِّرُكَ النَّاسُ بى، ويَقُولون هَذا قاتلُ أُمه! . .

فصَاحَ سعدٌ قائلاً وقَدْ نَفذَ صَبْرهُ : تَعلَمينَ يَا أُمى لَو كَانتْ لَك مائةَ نَفْس، فَخَرجتْ نَفْساً ما تركتُ دينَ مُحمد، فكُلى إن شئْتِ أو لاَ تَأكُلى، وتَركَها وانْصَرَفَ .

وأسرعَ سَعدُ بَن أبى وقاص إلى رسَول اللّه وقَصَّ عَلَيه مَا

حَدثَ، فَحزنَ النبى وَقَالَ لسعد: يا سَعْدُ كُن بَرّاً بأُمكَ واصبر عَليهاَ.

وَنَزَلَ القُرآنُ عَلى النَّبىَ ﴿وإن جاهداكَ علىٰ أن تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لكَ به علمٌ فلا تُطعْهُما وصاحبْهُما في الدُّنْيا معْرُوفاً﴾ [لقمان: ١٥].

واشْتدَّ ايذاءُ المُشركينَ للمُسلمينَ، وهَاجرَ بعضهمُ إلى الحَبشة، لكن سَعْداً ظَلَّ بجوار النَّبى ولم يُهاجر، وكانَ يُمارسُ عَملهُ تاجراً للسِّلاح وكانَ رامياً مَاهراً. ثُم هَاجَرَ سعدُ إلى المَدينَة قبلَ هجرة النَّبى لها، واشْتركَ فى غَزوة بَدْر، وقاتلَ المُشركينَ بسيفه وسهامه بشجاعة لا مثيبَ لها حتى أثْخنتهُ الجراحُ، ولما انتهتْ المعركةُ، خَلعَ سَعْدَ ثيابهُ التى مَلأتها الدِّماءُ وطوَاها ليوم لقاء رَبِّه.

* * *

وَفى غَزوة أُحُد، كَانَ سعدُ بجوار النَّبى يَرمى بسهامه المُشركينَ، والنبى يَرىَ سهامَ سَعْد تُصيبُ المُشركينَ فيقولَ لهُ: إرْمِ سَعدُ فأنتَ مُوَفَّقٌ، إرْمِ فداكَ أبى وأمى..

وانتهتْ المعركةُ لصالح المُشركينَ، وكانَ سَعدُ بن أبى وقاص فيها صَامداً مَع النبىَّ. وَظلَّ سَعدُ بن أبى وقاص على شَجاعته ومَحبته لرسول اللّه، ورَأى النَّبىُ فيه إخلاصاً ووفاءاً فَدعا له:

ـ «اللهمَّ سَددَّ رَمْيتهُ، وأجْب دعوتَهُ»

وَشَهدَ سَعدُ الغَزوات كلَّها مَع رَسول اللّه، ووقفَ مع الخليفةُ

أبوبكر الصدِّيق يُحاربُ المرتدينَ ويخوضُ المعاركَ لتثبيت دَولة الإسلام.

وفي خلافة عُمر بن الخطاب كانتْ الفُتُوحات الإسلامية تمتدُ في العراق والشَّام لمجابهة الفُرْس والرُّوم. وولّى إمبراطورية الفُرْس قائدٌ شُجاعٌ يُدعى «يَزْدجرد» دَفَعتهُ الغَيرةُ على بلاده إلى صَدِّ هَجَمات المُسلمين، فَألهَبَ مَشاعرَ قُوادِّه حَماساً للثَّأر من العَرب وطَردهم من بلاده، وغَزْو الحجاز أيضاً.

وبلَغَ أميرَ المُؤمنينَ عُمر بن الخطاب ذلكَ، ورأى خُطورةَ المَوقف، فَشاوَر أصحابهُ، فرأوا ضَرورةَ تَدعيم جَيْش المُسلمينَ ومُواصلة الفَتْح، وكانَ لابدَّ من جَمع المُحاربينَ من كلِّ ناحية لتكوين جَيْش قَوىٍّ.

وتجهزَّ الجيشُ، وانطلقَ من المَدينة بقيادة سَعْد بن أبي وقاص، وكانوا ثلاثين ألفَ مُقاتل من خيرة المُحاربينَ، وراحَ أميرُ المُؤمنينَ عُمر يُودِّعُ الجَيشَ ويُوصي قائدهُ قائلاً:

ـ ياسَعدُ، لا يغُرَّنكَ من اللّه أن قيلَ خَالُ رَسُول اللّه وَصَاحبُه، فإنَ رَسولَ اللّه لَيسَ بَينهُ وبَين أحد نَسبٌ إلا بطاعته، عَليكَ بالصَّبر واليَقظة واكتُبْ إليَّ بجَميع أحوالكم، وتَوَكَّل عَلَى اللّه، وَمَا النَّصرُ إلا من عند اللّه..

وَصَلَ سَعدٌ بالجيش إلى العراق، ثُم تَوَجَّهَ إلى القَادسية، لأنها بابُ فَارسٌ ويقفُ سَعدٌ يومَ مَعركة القَادسية خَطيباً في جَيْش المُسلمينَ يَحثُّهم عَلَى الجهاد في سبيل اللّه ويَملأُ قُلوبهم عَزْماً وقُوةً، ثُمَّ صلَّى بالجيش صلاةَ الظُّهر وردَّدَ:

« اللّهُ أكبرُ » أربْعاً، وردَّدَ الجَيْشِ وراءَهُ، ثم هَتَفَ شاهراً سَيْفهُ:

ـ هَيَّا تَقَدَّمُوا عَلَى بَركة اللّه..

فَتَقدَّمَ جَيشُ المُسلمينَ يُثيرُ الغُبارَ ويحملُ الدَّمارَ، ويَتَساقَط جُنودُ الفُرْس تَحتَ ضَربات السيُّوف وأسنّةَ الرِّماح. ويُقْتلُ رُستم قَائدُ الفُرْس، ويَفر جُنودُ الفُرْس تاركينَ أرضَ المَعرْكَة، فيتعَقَّبهمُ فُرسانَ المُسلمينَ.

وَيَنْتَصر المُسلمونَ في معركة القَادسية ويُصلُّونَ صلاةَ الفَتْح ثَمانَ ركعَات، ويُقيمُ سَعدُبن أبي وقَّاص بالقادسية شَهْرين يُريحُ فيها جَيْشهُ ويكتبُ إلى أميرُ المُؤمنينَ يُخبرهُ بالفَتْح.

ويتَلقى أميرُ المُؤمنينَ عُمر رسالةَ سَعْد ويتلوها عَلى المُسلمينَ في المَدينَة، ثُم يكتبُ عُمَرَ إلى سَعْد بأن يَسيرَ من القَادسية إلى المَدائن، وأن يترُكَ النِّساءَ والأطفال في العَتيق ويَجعلْ مَعهم جُنوداً لحمايتهم.

ويتقدمَ سَعدُ بالجَيشِ حتى تَمَّ فَتْح «بابل»، وأصبَحتْ معركةُ

«المدائن» قَريبةً، فقد حَشَدَ لها الفُرسُ كُل طَاقتهم، وتَحصَّنوا في قَرْية «بَهْرسير» عَلى نَهر دجْلة. وَحَاصرها سَعْدٌ بجيشه مُدَّةً، حتى تركُوها خَشْيةَ الجُوع. فَدَخلها سَعْد بالجيش في جَوْف اللَّيل، ويَقفُ سَعْدُ بجَيشه عَلى شَاطئ النَّهر، ويُرسلُ بَصَرَهُ إلى الجهة الأُخرى من النَّهر فيرى المَدائنَ، ويَرى في ضَوْء القَمر إيوانَ كسْرى بقُبته البَيضاء وجُدرانه العَالية وأَشْجاره البَاسقة فيشعرُ بفرحة.

ويَصيحُ أحدُ الجُنود بفرحة طاغية:

ـ اللّهُ أكبرُ.. هَذَا إيوانُ كسْرى عَلى مَرْمى البَصر، هذا ما وَعَدَ اللّهُ ورَسولُه! ويُردِّد المُسلمونَ بفرحة: اللّهُ أكبرُ! نَعم هَذَا مَا وَعَدَ اللّهُ ورسولُه.

* * *

وباتَ ستونَ ألفَ جُندي مُسْلم يُرددونَ في جَوْف اللَّيل: اللّهُ أكبرُ اللّهُ أكبَر لا إله إلا اللّهُ، اللّهُ أكبرُ ولله الحَمد.

وكانَ الفرسُ في المَدائن يَسمَعونَ تكبيرَ المُسلمينَ فَيزيدُهم رُعْباً وَهَلعاً.

وأرادَ سَعدُ بن أبي وقَّاص عُبورَ النَّهر إلى المَدائن، وكَانَ الفُرسُ قد هَربُوا من المَدينَة وجَمعوا السُّفن إلى الشَّاطئ الآخر لنهر دجْلة. وأَخَذَ سَعدُ يُفكرُ في وَسيلة آمنة لعبُور النَّهر ويَستَشيرُ قُوادَهُ. وراحَ يسألُ الله الهدايةَ.

وأخذته سنةٌ من النوم، فرأى رؤيا واضحةً، وهي أن خيولَ المسلمينَ تقتحمُ الماءَ وتعبرُ النهرَ وهو في فيضان عظيم. فعزمَ سعدٌ على عبور النهر. وفي الصباح جمعَ سعدٌ المسلمينَ وخطبَ فيهم، وحثَّهم على الثبات والصبر، وأوصاهم بإخلاص النية لله. فقالَ الجنودُ:

ـ عزمَ الله لنا ولكَ على الرُّشْد، فافعلْ.

فكوّنَ سعدٌ كتيبةً من ستمائة فارس على شكل حربة لعبور النهر بقيادة عاصم بن عمرو، وسُميتْ بكتيبة الأهوال، وعندما رآهم الفرسُ ـ من الشاطئ الآخر ـ عائمينَ على خيولهم، أعدُّوا مثلها، واقتحموا النهر، وقامتْ معركةٌ نهريةٌ بينَ المسلمينَ والفرس، فصاحَ عاصمٌ:

أشرعُوا الرِّماحَ وتوخُّوا العُيون!

وأخذَ جنودُ المسلمينَ يطعنونَ الفرسَ حتى استداروا وتراجعُوا إلى شاطئهم والمسلمونَ خلفَهم. واستمرَ القتالُ على الشاطئ حتى صاحَ رجلٌ فارسٌ:

ـ علامَ تقتلونَ أنفسكمَ، فوالله ما في المدائن أحدٌ!

عندئذ فرَّ جنودُ الفرس وتركوا الشاطئ. وأذنَ سعدُ ابن أبي وقاص إلى بقية الجيش في اقتحام النهر، وجعلَ لكلِ فارسٍ قرينَ حتى لا يضلَّ أحدٌ أو يغرقَ.

وَعَبرَ المُسلمونَ نَهرَ دجلةالذى فاضَ ماؤُه وكَثُر فيه الطَّمىُ والزَّبدُ.

وعندما وَصَلوا إلى الشَّاطئ صاحَ سَعدٌ فى الجُنود: هَل سَقَطَ منكمُ رَجُلٌ فى النَّهر؟

قالوا: لا

فَعادَ يَسألُ: هَل وَقَعَ منكمُ شَئٌ فى النَّهر؟

فقالوا: لا أيها القَائدُ.

وتَقَدمَ سَعدٌ بجَيشه فى طُرقات خَالية، وَبينَ ديار خَاوية، تَرَكَها أصْحابها خَوْفاً وَهَلَعاً. حَتَى وَصَلَ إلى إيوان كسْرى، ذَلكَ القَصرُ المُهيبُ، وكانَ به تَمَاثيلٌ نادرةٌ، ولوحات فَاتنة، وَجَواهرَ ثَمينة.

دَخَلَ سَعدٌ الإيوانَ وَهوَ يُردِّدُ فى دَهْشة:

ـ سُبحانَ اللّه.. كَمْ تَركوا من جَنَّات وَعُيون، وَزُروع وَمَقَام كَريم، ونعمة كَانوا فيها فَاكهينَ وكذلكَ وَأورثْناهاَ قَوْماً آخرينَ.

واعتلى المُؤذنُ البناءَ وراحَ يُردِّدُ الأذانَ.

اللّهُ أكبرُ... اللّهُ أكبرُ، حىَّ عَلى الصَّلاة، حىَّ عَلى الفَلاح.

واتَخَذَهُ المُسلمونَ مُصلَّى.

وَكَتَبَ سَعدٌ إلى أمير المُؤمنينَ عُمرَ يُخبرُهُ بفَتح المَدائن، ويرسلُ إليه الغَنائمَ.

* * *

جَعَلَ أَميرُ الْمؤمنينَ سَعْداً والياً عَلَى الكُوفة، وَجَعَلَها مَركَزاً للفُتوحات نَاحيَة المَشْرق. وأقامَ سَعدُ بالكُوفة عدةَ سَنَوات بَنَى فيها مَسْجداً، وَكَانَ يَلى شُئونَ النَّاس، وشُئُون الحَرْبَ، ويُصلى بالنَّاس.

وتَمضى الأيامُ، ويذهبَ نَفرٌ من أهلِ الكُوفة إلى أميرِ الْمؤمنينَ بالمدينة يَشكُونَ إليه سَعْداً، فَقَالوا:

ـ يَا أميرَ الْمؤمنينَ، إنهُ لا يُقْسمُ بالسَّوية، ولا يَعدْلُ فى الرَّعية، ولاَ يَغزُو فى السَّرية، ولاَ يُحسنُ الصَّلاةَ!!

وأرسلَ أميرُ الْمؤمنينَ مُحمداً بن سَلَمةَ إلى الكُوفة للتحقيق فى الشَّكوى، وكانَ يسألُ النَّاسُ سراً عَن سَعْدُ ابن أبى وقاَّص، فيقولونَ: والله لا نَعلمُ عنهُ إلاخَيْراً. إلا رجلٌ يُدعى«أُسامةُ بن قتَادة» اتَّهمَ سَعْداً.

وَعَلمَ سَعدُ بالأمر فَبكى بُكاءاً شَديداً، وقالَ: «اللَّهمَ إن كانَ هَذا الرَّجُلَ قالها كَذباً ورياءً فاعْمِ بَصَرهُ، وأكْثر عيالهُ، وعَرِّضهُ لُمضلات الفتن».

وَخَرَجَ مُحمدٌ بن مسلَمةَ من الكُوفة بسعد بن أبى وقاص، وَمَعَهُما أولئكَ النَّفر الذينَ يتَّهمونَ سَعْداً، وعندما دَخَلوا عَلَى أميرِ الْمؤمنينَ عُمَرَ بالمدينة، قَالَ:

ـ وَيْحَكَ يا سَعْدُ . . كَيفَ تُصَلى؟

قالَ سَعْدُ: أُطيلُ الرَّكعتينِ الأولينَ، وأخففُ الآخريينَ.

ردَ عُمرُ: هكَذا الظَنُ بكَ.

ثُم عَزَلَهُ عُمرَ عن ولاية الكُوفة، وبَقَى سَعْدُ مَعَ أميرالمُؤمنينَ عُمر وزيراً ومُستشاراً، وسكَنَ فى وادى العَقيق قُربَ المَدينة.

وفى خلافة عُثمان بن عُفَّان، ولِىَ سَعْدُ الكُوفَةَ مُدةً ثم تركَهَا واعْتَزَلَ فى بيته.

وتَمضى السنواتُ، ويُصابُ «أسامة بن قتادة» بالعَمى ـ الرَّجلُ الذى اتَّهم سَعْداً ـ وأصبَحَ لَديه عَشْر بَنات، وكانَ هَذا الشَّيخُ ـ برغمِ كبره ـ هاتكاً عربيداً، وكان يقفُ بالطُّرقات يُغازلُ النِّساءَ.

ويراهُ النَّاسُ فيتعجبون: وَيْحكَ يا رجُل. . عَجوزٌ وتُغازلُ النِّساءَ؟!

فيقولُ الشيخُ المتهتكُ ـ وقد تدلَّى حاجباهُ فوقَ عَينيه مَفتونٌ أصابتهُ دَعوةُ سَعْدُ بن أبى وقاص، الرَّجلُ المُباركُ.

ويَشتدُ المرضُ بسعد بعد أن بَلَغَ الثَمانينَ من عُمُره، ويَراهُ ابنهُ فَيبكى، فيقولُ سَعْدُ: ما يُبكيكَ يا بُنىَّ؟. . واللَّه إنْ اللَّهَ لا يُعَذبنى، وإنَّنى إن شاءَ اللَّهُ من أهْلِ الجنة، يابُنىَّ ائتونى بتلكَ الجُبَّة

الصُّوف التى قاتلتُ بها المُشركينَ يَومَ بَدْرٍ، فما طويتُها كُل هذه السَّنوات إلا لهذا اليَوم.

فيقومُ ولدهُ «مُصعبٌ» ويُحضرُ الجُبَّة التى جَفَّتْ فيها دماءُ أبيه يومَ المعركة. فيقولُ سعدٌ: كفنونى فيها.

وعندمَا حضرتْ الوَفاةَ سعدٌ بن أبى وقاص، جاءَ رجالٌ من أهْلِ المَدينة وجَهزوهُ وكَفَّنوهُ فى جُبَّته الَّتى شَهَدَ فيها غَزوةَ بَدْرٍ، ثُمَّ حملُوهُ إلى مَسْجِد الرَّسول وصلُّوا عليه.

ودُفِنَ بالبَقيعِ مع إخوانه صَحَابة رَسول اللّه -ﷺ-.

«رضى اللّهُ عن سَعْدِ بن أبى وقاص»